القرار الأخير

بقلم: جانا باتي

لاحت على ثغرها ابتسامة عابرة، أو شبه ابتسامة، وهي تسند ذقنها فوق راحة يدها، وتضع ذراعها على حافة الباب الصغير.. كانت تنظر إلى الشارع المقفر الضيق، في ملل، ثم الفتت باهتمام عندما لمحت فجأة شخصين متلازمين يستحثان الخطى عند طرف الشارع.. وتبعتهما بنظرها إلى مدى الرؤية، ثم ارتدت إلى نفسها، وأطلقت تنهيدة طويلة.

لم تكن تدري كم من الوقت مضى وهي تقف وقفتها تلك.. حتى أفاقت على صوت جرس الدراجة يحركه صاحبها وهو يمضي بحذر في طريق متعرج ليتجنب الاصدام بشابين يسيران في وسط الطريق، وهما يضحكان بصوت عال لبعض النكات..

ونزل «رامانوجام» عن دراجته وحيا زوجته بابتسامة عريضة، ولكنه ما لبث أن أدرك أنها لم تكن ملتفتة تماماً إليه.. بل كانت لم تزل تنظر بعيداً..

– هيا ندخل.. ما كان يصح أن تقفي خارج الباب في هذه الساعة.. إنك بذلك تعرضين نفسك للإصابة بالبرد!

ودخلا معاً، لم يكن مسكنهما إلا جانباً من مرفق بيت كبير في هذه القرية، بدلا فيه قليلاً بحيث يصلح للسكنى، وكان الزوج قد بذل جهداً كبيراً حتى استطاع أن يحمل «آيانجار» صاحب الدار على السماح له بهذا الركن الصغير المتواضع القائم عند طرف السور الكبير!

وفي أول مرة جاءت زوجته إلى هذه الضاحية، وخطت إلى هذا المكان، بذلت هي الأخرى جهداً كبيراً لكي تحمل نفسها على الإقامة في هذا المكسن المقبض المهجور.. ولم تقبل الحياة في هذا المكان إلى بعد نزاع فيما بينها وبين نفسها.. إنها تعلم أن حياة المدن كثيرة التكاليف، وزوجها قد حصل بالكاد على عمل متواضع.. ولكن هل يهم بالمال، ألا يغني الحب عن سائر ما يكلفه المال من أشياء ومظاهر؟.. ألا يغني الغنى في الحب عن الغنى في المال؟.. لا شك أن الحب أمر جوهري تبدو سائر الأشياء حياله مجرد قشور لا قيمة لها!

***

قالت لها «أمبوجا» وهي تدعوها إلى الجلوس في الحجرة الفاخرة بالمنزل الكبير الذي يملكه والدها «آيانجار» الذي ذكرنا اسمه من قبل:

– إن الإنسان ليكاد يجن من وطأة الوحدة وهذا السكون المخيم على كل شيء.. وأظن أنني أستطيع أن أتناسى هذه الوحدة إذا جلسنا معاً نتحادث بعض الوقت.. وهذا ما شجعني على أن أدعوك اليوم لزيارتي.. إنني أرجو ألا يؤخرك ذلك من أداء عمل البيت.

وقالت ألاميلو على الفور:

–لا.. مطلقاً، إني أصارحك القول بأنني أنا أيضاً قد أحسست هذا الاحساس!

– إنني سعيدة حقاً.. فنحن نستطيع أن نتعاون على التخلص من هذا الشعور بالوحدة كلما التقينا..

وضحكت أمبوجا، وضحكت ألاميلو وعادت الأولى تقول:

– إن أبي كذلك يحس بالوحدة والوحشة.. يا له من مسكين.. إنني لن أطيق أن أبقى طويلاً في هذه القرية.

واعتادت ألاميلو كل يوم بعد ذلك أن تبكر بأداء أعمالها المنزلية، وعند خروج زوجها وقت الذهاب إلى عمله، تندفع هي إلى الباب الكبير لتقابل أمبوجا صديقتها، إنهما متعادلتان في السن، وأكثر من هذا فإنهما يتفقان في الذوق، وكثيراً ما تتفق وجهتا نظرهما كلما تناولتا موضوعاً أو تحدثتا في أمر ما!

والتفتت أمبوجا فجأة وقالت لضيفتها: «أليس اليوم هو يوم العيد، فكيف أراك بغير «ساري» جديد؟».

وضغطت ألاميلو على شفتيها لتخفي ما انتابها من تأثر وألم وأدركت أمبوجا على الفور خطأها، وأحست بالندم على ما بدر منها وهي تبدي هذه الملاحظة التي جرحت صديقتها، فبادرت إليها ووضعت يديها برفق وحنان فوق كتفيها واصطحبتها إلى غرفة الزينة محاولة أن تسري عنها وتزيل ما علق بنفسها.. ولم تقو ألاميلو على أن تقول شيئاً، فتبعت مضيفتها في صمت.

وقالت أمبوجا تعتذر:

– إنني آسفة على ما أبديت من حماقة.. وأنا في الواقع لم أكن أقصد إلى شيء من هذه الإهانة..

وتركت ألاميلو في وسط الغرفة وأسرعت تفتح دواليب الملابس.. كانت كلها مليئة بالملابس الفاخرة من بلوزات وجونلات وساري مرصعة بالقصب أو النقوش.. وحملقت ألاميلو في هذه الأثواب ببلاهة، وعقدت الدهشة لسانها فلم تدر ماذا تقول، وذرعت أمبوجا الغرفة مرة أخرى وسحبت عدداً من الصناديق التي تحتوي على «تشكيلة» وافرة من الحلي والأحجار الكريمة، والتفتت إلى ألاميلو وقالت:

– هيا بنا نرى أي هذه العقود والثياب يناسبك لكي ترتديه معي اليوم.

واستطردت قائلة:

– إني لا أدري ما إذا كنت ستجدين من بينها شيئاً يلائمك، فأنا لا أحسن الاختيار، ولا أطمئن إلى ذوقي..

– ولكن..

– لا، لا تعترض فأنا لن أسمح لك بالاعتراض.. ولا تنسي أننا كالأخت وأختها، إني أصر على أن ترتدي ما يحلو لك منها اليوم.

وغادرت ألاميلو غرفة الزينة وهي في زيها الجديد.. امرأة رائعة الحسن أبرز الثوب محاسنها وجمالها، وبدت في الساري النفيس والعقد الثمين فاتنة ساحرة، قد ازداد سحرها وفتنتها مائة ضعف!

وأطرت المضيفة حسنها قائلة:

– ما شاء الله!.. إنك رائعة!.. تعال يا أبي واشهد.. انظر من ترى عندنا.. هل تعرفها!.. هل تستطيع أن تميزها؟

ودخل آيانجار إلى القاعة ووقف مبهوتاً!..

وشعرت ألاميلو بالخجل واقتربت من صديقتها.. ولكن الخجل قد ترجمه الحسن على وجهها في صورة ضاعفت من جمالها!

وصاح أيانجار:

– يالك من حورية نزلت إلينا من الجنة!...

وازدادت ألاميلو حساء وتضرجت وجنتاها باللون الأحمر.. وشجعتها أمبوجا على أن تبقى بهذا الزي طيلة يومها، حتى إذا جاء المساء انصرفت إلى بيتها.

حملق زوجها رامانوجام فيها عند عودته وهو لا يكاد يصدق عينيه!

وقالت له ألاميلو:

– انظر.. انظر ماذا فعلت لي أمبوجا اليوم..

وخطا الزوج نحوها، وأخذ وجهها بين راحتيه، ونظر في عينيها وقال:

– لم أكن أعلم أنك يمكن أن تبدي بمجرد تغيير زي، بمثل هذا الجمال الأخاذ!.. إنه الله قد وهبني أجمل امرأة، ولكنه لم يهبني ما تحتاج إليه لإبراز هذا الجمال!

وأمنت ألاميلو على ملاحظته قائلة:

– حقاً.. ما أبعد الفرق!

وراح الرجل يردد في تدبر:

– حقاً

وعادت ألاميلو تقول:

– لن أعود إلى لبس تلك الثياب الخشنة!..

***

وفي إحدى زيارات ألاميلو لجارتها قالت لها الجارة:

– لقد اعتزمت أن أسافر عائدة يوم السبت القادم.. إنني أمضيت هنا ما يقرب من شهرين أحسست كأنهما سنوات عديدة!

وصدمت ألاميلو بهذا الخبر.... لقد حزنت نفسها عندما علمت بهذا الفراق الوشيك.. إنها منذ عرفت أمبوجا قد ائتنست بها وشعرت كأن لقاءهما الأول لم يكن إلا أمس.. وقد صادقتها بإخلاص واطمأنت إليها، ولم يعد الفراق في المركز الاجتماعي لكل منهما يؤثر فيما تكنه كلتاهما من صداقة وود للأخرى.. وأمبوجا هي صاحبة الفضل في هذا كله.. ولكن ها هي ذي تنهض فجأة لتلحق بزوجها، كما يستيقظ الإنسان فجأة من حلم جميل!

وفي يوم تالي بينهما كانت ألاميلو في منزل صديقتها، أشارت أمبوجا إلى لوحة زيتية معلقة في الحائط، تحمل رسم امرأة وقور بالحجم الطبيعي وقالت:

– هذه هي أمي.. لقد ماتت منذ بضعة أشهر فقط قبل أن تحضري وتقيمي مع زوجك في هذا المكان.. كانت سيدة محبوبة فاضلة... وقد كانت وفاتها نكبة شديدة لوالدي، وخاصة أنه رجل اجتماعي بطبعه!

وتوقفت قليلاً ثم استأنفت قائلة:

– ليته يتزوج مرة ثانية!.. إن الأشخاص الذين على شاكلته يفقدون كل استمتاع بالحياة عندما تكتب عليهم مثل هذه الوحدة.. وهو لحسن الحظ في حال صحية جيدة، وروحه لم تزل شابة..

ثم تحولت إلى صديقتها وخاطبتها قائلة:

– سأغادر هذا المكان في الصباح يا ألاميلو.. وإنني لسعيدة جداً بأنني قابلتك وتعرفت بك.. مسكين والدي.. سيعاني الوحدة من جديد.. إني أرجو ألا تنقطعي تماماً عن هذا المكان بعدما أذهب يا عزيزتي.. حاولي أن تأتي بين حين وآخر وأن تسألي عن أبي، فإن هذا قد يخفف عنه بعض ما يعانيه.

وانحدرت على خدي ألاميلو دمعتان حارتان..

***

حين لقيت ألاميلو الرجل في بيته ذات يوم، براً بوعدها لصديقتها، قال لها في شيء من الجرأة:

– إن أمر إسعادي أمانة في عنقك..

وابتسمت ألاميلو.. ابتسمت في سذاجة..

وفي اليوم التالي عندما خلت ألاميلو إلى نفسها جلست تجتر عبارة الأمس التي بدرت من الرجل، واحتدم في نفسها صراع داخلي يشبه الحرب، ولما التهب رأسها وأحست بالتعب أوقفت هذا الصراع ولم تعد تفكر في الأمر أكثر مما فعلت.

وعادت ألاميلو إلى بيتها ذات أصيل محملة بالهدايا

وقال ألاميلو لزوجها:

– إن أيانجار قد أصر على أن أتقبل منه هذه الهدايا.

حلي وملابس وهدايا!.. إن زوجها قد أدركته الحيرة من هذه الأشياء، ولكنه الزوجة ذكرت له السر:

– لقد قال لي أن اليوم هو ذكرى ميلاد زوجته.

وتعجب رامانوجام وهو يفكر هل ذلك الرجل كريم إلى هذا الحد؟..

وما لبثت الإشاعات عن زوجة رامانوجام تنتشر في كل مكان، والرجل غير مستريح.. وبجانب ذلك كان يشعر ببذور الشك تمد جذورها في باطن عقله، وكانت إجابات زوجته وإيضاحاتها له غير مقنعة.. وكثيراً ما عول على أن يسألها تفسيراً صحيحاً كاملاً، ولكنه كلما نظر إليها ورأى وجهها البريء، ولمح في عينيها بساطة الطفولة عدل عن المضي في وساوسه..

***

ولكن الشك صار يتزايد في نفسه كلما رآها تأتي بهذا الشيء أو ذاك إلى البيت.. ولم يعد يحتمل هذا العذاب الفكري وهذا الكبت المضني، ووقع ما لم يكن بد من وقوعه، إذ انفجر في وجهها ذات مساء مهدداً..

وغضبت ألاميلو وصاحت قائلة:

– هكذا الشأن مع الرجال دائماً.. هل وجدتني لا أحبك بما فيه مقنع؟.. هل لاحظت علي تحولاً من جهة حبي لك واهتمامي بك؟

حقاً، ليس هناك تغيير أو تحول.. فهي هي كما كانت دائماً.. اهتمام، وحب، وعناية.. لقد اطمأن إلى هذه القرينة واستراح لهذا الخاطر، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى قلقه وثورته وأصر على أن يتلقى إيضاحاً وتفسيراً..

وصمتت ألاميلو لحظة، ثم تكلمت:

– يحق لك أن تعرف كل شيء، ولكن تذكر شيئاً جوهرياً، هو أن ضميري لم يسمح لأي شيء بأن يؤثر على حبي لك.. إنني دائماً لك بكليتي.. قلبي وروحي، ولكن الحب شيء والضيق الذي يتعرض له الشخص في مثل حياتنا كل يوم شيء آخر.. إن هذه الأشياء اللازمة للحياة وغيرها مما يستعين به الإنسان على جعل الحياة محتملة لا يغني الحب عنها فتيلاً.. وقد رأيت كما تعلم أننا لا نكاد نحصل على ما يكفي حتى لبعض هذه الضروريات، فضلاً عن الكماليات.. وما كان أمامنا إلا أن نذوي ونفنى من جراء ما نعانيه من فاقة وما نتشبث به من أنفة كاذبة. وقد تجنبت منذ البداية هذا المصير بقبولي الهدايا التي قدمها إلي آيانجار، وترتب على ذلك أننا أصبحنا أفضل بكثير مما كنا عليه.. ونحن مازلنا يحب كلانا الآخر.. نحن سعيدان يتوافر لدينا بعض الراحة وبعض اللوازم..

– ولكن كيف يحدث أن يكون ذلك الرجل كريماً معك وحدك؟ لماذا لم ينثر هداياه ذات اليمين وذات الشمال لكل شخص؟!

– كدت أفهم ما تعني!.. أظنك تتشكك في براءة العلاقة القائمة بيني وبين آيانجار؟ حسناً، وماذا يكون إذا قلت لك الحقيقة؟ إنني فعلاً على صلة به!

وصرخ الرجل بكل قواه كالملدوغ:

– ماذا؟!

والتوت رقبته، وثقل رأسه، وترنح في وقفته، وأكملت ألامليو اعترافها:

– أنا لا أظن أنني كنت مخطئة.. إني لم أسمح قط بأن يحول أي شيء دون قيامي بواجباتي كزوجة..

وهاج الرجل كهياج المجانين وصاح:

– أنت أيتها الـ...

– استمع إلي.. لا فائدة من أن تحاول أن تكون أحمق أو غبياً.. إن الحكمة تقتضي أن نكيف حياتنا ونكيف أنفسنا، وننتفع بخير ما في الحياة.. لقد فكرت أنا أيضاً طويلاً في هذا الأمر وفي النهاية اقتنعت بأنه

ليس فيما فعلت ضرر ما.. إننا على الأقل قد تولد عندنا بعض الأمل في المستقبل..

– إنني أستطيع أن أقتلك الآن أيتها السافلة وأشرب من دمك.

– لا فائدة من هذه الثورة، قلت لك!.. لقد اقتنعت واخترت.. هذا هو قراري وهذا هو اختياري كما بسطته.. والآن جاء دورك أنت لتختار.. إن علينا أن نتفاهم ونتفق.. فكر في المسألة كلها بهدوء وروية قبل أن تستقر على رأي، ولا تكن متهوراً.

قالت هذا بجنان ثابت، ونبرة متحدية، ثم تركته وانصرفت إلى شأنها!

***

بقى رامانوجام نهباً لتيارات مختلفة تتقاذفه وتتعاوره.. وامتد به التفكير يوماً بعد يوم فيما واجهته به ألاميلو.. إنها مصرة على ما رآه، ثابتة على قراراها، لقد شعر بأن النكبة أفدح من أن يحتملها.

ماذا يفعل؟

لقد فكر في أن ينتقم.. فكر في أن يعاقبها عقاباً يضارع هول الحادث.. هول اعترافها.. هل يقتلها إذن؟.. إن القتل لا يكفي.. إن قتلها لن ينسيه الحادث، وبينما هو يتعذب تكون هي قد استراحت من الحياة والأحياء.. فقد أراد أن تذوق جزاء فعلتها، وتشعر بحقيقة جرمها،

وتتلقى الجزاء الذي تستحقه.. بحيث يلحقها العار وتتبعها اللعنة والفضيحة.. والهوان، والحرمان.. أينما كانت، وتعرف حياة أفضل منها الموت!..

وفكر، وقرر..

ولم يلبث أن نفذ وعيده.. وشاهد جميع الناس في ذلك اليوم رجال البوليس، ورجال الإنقاذ، والمحققين، والجيران وغير الجيران يتجمعون ويتطلعون، أو يدخلون إلى منزل الرجل ويخرجون منه..

أجل، لقد قتل.. نفسه!

وكان هذا هو قراره الأخير

– كأنما هو مغناطيس قد جذبنا أحدنا نحو الآخر، أو قل.. مظلة!